

الإيجاز في المدونة البلاغية القديمة

The brevity in the old rhetorical blog

كحطري سمية²

hassanimamia5@gmail.com

جامعة عين تموشنت / الجزائر²

كحساني مامة¹

soumyahatri@yahoo.fr

جامعة سيدي بلعباس / الجزائر¹

تاريخ النشر: 2022/01/23

تاريخ القبول: 2020/12/11

تاريخ الاستلام: 2020/06/25

ABSTRACT:

The phenomenon of "brevity and introspection" in our ancient Arab heritage goes beyond mere quantity and counting, our ancestors have emerged in many different concepts that have manifested themselves in the awareness based on the issue of the issue of the question of classifying and defining, including what is spoken, from what is written, and from which it is a dastardly. Brevity has a role to play in introducing the recipient into the creative process through the interaction resulting from its interpretation, and its renewal of meaning, making sense of meaning or reading.

Keywords: Brevity, Introspection, Blog, Eloquence, Old

ملخص البحث

تتجاوز ظاهرة "الإيجاز والإطناب" في تراثنا العربي القديم مجرد الكمّ والعدّ، فقد برزت لدى أسلافنا مفاهيم متعددة تجلت في الوعي القائم على مسألة التصنيف والتحديد، مع مراعاة مستويات التقابل والتوازي بين أساليب الكلام، فمنه ماهو منطوق، مكتوب، ومأثور.

والشفوي والمكتوب مدخل معمق في مجال التاريخ البلاغي يتمثل خاصّة في الإيجاز، باعتباره الأسلوب المناسب لذلك، لهذا رأوفيه مزّية، بل حتّى أنّ البلاغة كلّها لخصّت في تحقيقه، وإلا كان ذلك عينا وثرثرة، فله دور في إدخال المتلقي في العملية الإبداعية من خلال التفاعل الناتج عن تأويله، فيصبح معنى أو قراءة لقراءة.

الكلمات المفتاحية: الإيجاز، الاطناب، مدونة، بلاغة، قديمة

مجلة لغة – كلام / مختبر اللغة والتواصل / جامعة غليزان (الجزائر)

¹ المؤلف المرسل : حساني مامة

مقدمة:

هناك أساليب عديدة تعتمد التّركيز والتّكثيف والاقتصاد مع ضرورة الإيفاء بالمعنى، باعتباره جوهر الكلام وروحه، ويتصدّر ذلك الإيجاز باعتباره عنواناً من عناوين تاريخ البلاغة العربيّة، "وكأنّه المعادل الإجرائي لها"¹، وعليه إذا بحثنا في وجوه الكلام، وجدنا منه: الجدّ والهزل، الحسن والقبيح، الملحون والفصيح، الخطأ والصواب، الكذب والباطل، والسّخيف الذي هو: "كلام الرّعاع والعوام الذين لم يتأدّبوا، ولم يسمّعوا كلام الأدباء، ولا خالطوا الفصحاء، وذلك معيب عند ذوي العقول"² والبليغ والعجّ، وغيرها

تمهيد:

للّغة مستويين للتّعبير، أحدهما: أدنى وهو الذي يتحقّق في الكلام العادي، ويمكن لأيّ شخص تلقينه، وثانيهما: أعلى، وهو ما يمكن تسميته بالمستوى الغنيّ البليغ، وهو خاص بطبقة معيّنة من النّاس، لا يتأتّى لجميعهم، يتّسم هذا النوع من التّعبير "بالتجويد والجمالية والوجدانية، وفيه يلجأ الأدباء والشعراء لنقل معانيهم وتجاربهم إلى أعمال الفكر والذوق والخيال والعاطفة في اختيار المعاني والألفاظ والتراكيب والصور الفنّية البلاغيّة المعبّرة عن الغرض في نظم خاص مقصود يتحقّق به الإقناع والتأثير في المتلقي"³، غير أنّ هذا المستوى تتفاوت فيه الطبقات على غرار المستوى الأوّل الذي يمكن أن تتساوى فيه، وذلك من نواحي عدّة كالجمال وحسن الشّكل، وفي المعاني والألفاظ، طبعاً يتّأسسها القرآن الكريم المعجزة، وحاشى أن نوازنه ببقية الطبقات وإن حسنت، ودونه تتفاوت طبقة الشعراء في شعرهم ونظمهم ويتفاضلون فيما بينهم، وهذا محبوب.

ولتحقيق هذا المستوى، وضع العلماء شروطاً يمكن اعتبارها حدوداً في التعامل مع الألفاظ، من بينها تفضيل الإيجاز، وفي ذلك يقول أصحاب هذا الرّأي موضحين: "الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخلل وهما من أعظم أدواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصّنع"⁴، والمقصود هنا، الإيجاز الذي يصل إلى المعنى فيؤدّيه، وليس المضّر المخلّ به.

يقدم القدامى نموذجاً على هذا الإيجاز في قوله تعالى: *وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ*⁵، ذلك لأنّ هذه الألفاظ على إيجازها قد عبّرت عن معنى كثير، وهو أنّ الإنسان إذا علم أنّه متى قتل كان ذلك داعياً له قوياً ألاّ يقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل النّاس بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم، وهذا من أعلى طبقات الإيجاز من هنا يتّضح لنا أنّ للّغة مستويين للتّعبير، أحدهما: أدنى وهو الذي يتحقّق في الكلام العادي، ويمكن لأيّ شخص تلقينه.

وثانيهما: أعلى، وهو ما يمكن تسميته بالمستوى الغنيّ البليغ، وهو خاص بطبقة معيّنة من النّاس، لا يتأتّى لجميعهم، يتّسم هذا النوع من التّعبير "بالتجويد والجمالية والوجدانية، وفيه يلجأ الأدباء

والشعراء لنقل معانيهم وتجاربهم إلى أعمال الفكر والذوق والخيال والعاطفة في اختيار المعاني والألفاظ والتراكيب والصور الفنية البلاغية المعبرة عن الغرض في نظم خاص مقصود يتحقق به الإقناع والتأثير في المتلقي"⁶، غير أنّ هذا المستوى تتفاوت فيه الطبقات على غرار المستوى الأول الذي يمكن أن تتساوى فيه، وذلك من نواحي عدّة ناحية كالجمال وحسن الشكل، وفي المعاني والألفاظ، طبعا يترأسها القرآن الكريم المعجزة، وحاشى أن نوازنه ببقية الطبقات وإن حسنت، ودونه تتفاوت طبقة الشعراء في شعرهم ونظمهم ويتفاضلون فيما بينهم، وهذا محبوب.

ولتحقيق هذا المستوى، وضع العلماء شروطا يمكن اعتبارها حدودا في استعمال الألفاظ، أو في التعامل معها، ومن بين هذه الحدود تفضيل الإيجاز، وفي ذلك يقول أصحاب هذا الرأي موضحين مدعّمين: "الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخلط وهما من أعظم أدواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصنعة"⁷، والمقصود هنا، الإيجاز الذي يصل إلى المعنى فيؤديه، وليس الإيجاز المضّر المخلّ به.

ومن خلال بعض النصوص الواردة لنا، سننتبع هذه الظاهرة -الإيجاز- فعلا هي ظاهرة بلاغية محظرة، على امتدادها التاريخي بدءاً بأبو البلاغة الجاحظ وصولاً إلى جامعها السكاكي.

1. تباشير القضية عند الجاحظ والرماني:

تمثّل لنا هذه الفترة جملة من المعطيات ذات الأهمية عن الإيجاز، وارتباطه بالخطاب، باعتباره لا يتأتى لكلّ من أراد الوصول إليه بسهولة، وهذا راجع إلى حساسية العملية اللغوية فكل تقصير قد يؤدّي إلى الإخلال بها، وبالتالي فشلها وعدم تحقيقها، ولذلك يتطلّب الكفاءة البلاغية التي تؤهّل صاحبها على ذلك، المتمثلة في الربط بين الأساليب البلاغية خبرية كانت أو إنشائية ومقتضى الحال، "فلكلّ مقام مقال"⁸، فهناك من المواطن ما يقتضي الإيجاز، وفي نفس الوقت منها ما يقتضي الإطناب.

أ- الجاحظ: من التعريفات التي يسوقها 'الجاحظ' للبلاغة ما يقوم أساسا على الإيجاز منهجا في تقصّد المعنى وفي حقيقة الأمر نجد "أنّ المعنى والغرض من الكلام هما اللذان يقضيان بأن تستعمل كلمة دون أخرى أو صبغة دون أخرى"⁹، فالإيجاز غرض ومعنى، وفي الأخير هما من يحدّدان طبيعة الكلام، هو أمر أشار إليه الأولون حسب ما جاء على لسان الجاحظ، في تعريفاتهم للبلاغة وربطها بمفهوم الإيجاز، "ويثبت الجاحظ تلك الأخبار ويعبر أحيانا عن موقفه منها تعبيراً ينم عن وعيه بما يجب أن يتوفر في الحدّ حتى يقع الإخلال بالوظيفة الأساسية، وهي عنده الإبانة عن الغرض من أقرب السبل"¹⁰.

بعدها ينتقل 'الجاحظ' في مرحلة ثانية إلى تطوير الحدّ باقتصاد ما قد يتبادر الذّهن بناء على أصل الكلمة اللّغوي من دلالات كميّة ماديّة، ورفض الإيجاز الذي يقلّل من عدد الحروف واللفظ

فقط "والأساس الذي عليه بنى تصوره هذا هو سلطان البيان الذي يعتبر محور نظرية، فكلّ ما يحجب المعنى أو يتسبب في إغلاقه وغموضه ليس من البلاغة والبيان، ولا يمكن أن يدخل في باب الإيجاز"¹¹، المقصود هنا الإيجاز البليغ المؤدّي إلى المعنى دون الإخلال به، فيصبح الإيجاز بهذا المفهوم استثناء للمعنى، ولو طال.

إذ نجده يورد مفاضلة بين توقيعات هي لـ "أم جعفر"، وأخرى لـ "جعفر بن يحيى البرمكي، إذ يقول: خبرني جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه، قال: ذكرت لعمر بن مسعدة توقيعات جعفر بن يحيى، فقال: قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها: فوجدتها أجود اختصاراً، وأجمع للمعاني"¹²، هي مفاضلة قائمة على أساس فني راجع إلى بنية التوقيعات، التي تكمن في اللفظ القليل الجامع للمعنى الكثير، خاصة وأنّ "جعفر البرمكي" هذا كان شديد الميل للتوقيعات، لدرجة أنّه قال لكتّابه "إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا"¹³، لأنّ التوقيعات هنا تمثل الإيجاز في أعلى درجات الكتابة.

نستنتج هنا وبسهولة أنّ الإيجاز والإطالة قد يتطابقان احتراماً للمناسبة بين اللفظ والمعنى "فلكل معنى شريف ضرب من اللفظ هو حقه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوره، أو يقصر دونه"¹⁴، وهو ما يسمى بمناسبة الخطاب في علاقته بصاحبه، ومتقبله، وموضوعه وبالمقام الذي يجري فيه.

ولكن مع ذلك كلّ، لم نشعر بأنّ 'الجاحظ' يهتم بهذه الوسيلة، اهتماماً يتجاوز كونها وسيلة من وسائل التعبير، فكانت نصوصه مجرد تنظيرات لم تنخرط في بنية مضبوطة.

ب- الرماني: ما يمكن ملاحظته في 'الرماني' هو تصديره لباب الإيجاز على بقية المقاييس المكونة للبلاغة، ومعنى هذا "أنّ الإيجاز سيكون المقياس الذي يستطرد منه إلى بقية المظاهر المكونة لهذا الباب كالإطناب والتطويل"¹⁵، مستدلاً بنصوص كثيرة كما ومعنا.

جمع 'الرماني' هذا الكمّ التعريفي في قوله "الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز"¹⁶، فالإيجاز بالنسبة له إظهار المعنى الكثيف والإتيان باللفظ القليل، بعد تصفيته.

أمّا بالنسبة للألفاظ، فالسؤال المطروح هنا هو: إذا اختص الإيجاز عن معنى واحد باللفظ، أي عندما تستوي الألفاظ كلاماً، كيف يكون هذا الإيجاز في اللفظ الواحد؟.

الإيجاز هنا نوعان: 'قصر' و'حذف'، وقبل الحديث عن النوع الذي يمكن إدراجه ضمن ما يسمى بالاعتقاد اللغوي، لا بأس أن نتطرّق إلى النوع الآخر الذي كثيراً ما أنزل إلى درجة المساواة، وهو القصر، فالقصر "تقليل الألفاظ وتكثير المعاني"¹⁷، أي التعبير عن المعنى بالكلام الكثير، وهو عكس التطويل، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾¹⁸، يتبيّن لنا فضل هذا الكلام إذا قارناه

بقول العرب "القتل أنفى للقتل"¹⁹، فيصير لفظ القرآن فوق هذا القول لما فيه من الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص، إضافة إلى إظهار الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة ثم استدعاء الرّهبة لحكم الله سبحانه وتعالى، وذلك كلّ ضمن عبارة موجزة بليغة، وعليه "فإنّ الذي هو نظير قولهم - القتل أنفى للقتل- إنّما هو (القصاص حياة) وهذا أقل حروفاً من ذلك ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن بريء من ذلك وبحسن التّأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحس لأنّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة"²⁰، فقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وقول العرب (الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ) كلاهما يحملان معنى واحد، ممّا يشرع المقايسة، لكن الدوافع العقديّة، دفعت بـ'الرّماني' إلى الاجتهاد لإبراز التفاوت البلاغي والإيجازي بين هذين المذهبين في التعبير عن المعنى الواحد، وقد توصّل إلى أمرين هما:

أولهما: أنّ الإعجاز ليس له قاعدة، وبالتالي "هو أمر داخل في دائرة التأثير والوقع والانطباع"²¹، وهذه الأمور لا يمكن أن يقتنع بها بواسطة قانون لغوي، يقول في ذلك "وظهور الإعجاز في الوجوه التي نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة في أعلى طبقة"²².

أمّا ثانيهما: فهو إقراره بأنّ في لغة العرب عبارات لا تقلّ قيمة عمّا يتضمّنه القرآن من قوة وأداء، ويبقى أنّ الفرق قائم على تلك الجملة التي وضعها علماء الإعجاز مقدمة لدراستهم وأخرجت الكثير منهم غاية الحرج، فقد وضع 'الرّماني' وغيره من أصحاب مؤلفات الإعجاز القرآني، كلّ تلك المقدمات لكي يحصل لهم الدّفاع عن هذا الأصل المهم من أصول العقيدة، وسّمّوا ما أعجبوا به من كلام العرب فصاحة وبلاغة، لما فيها من قدرة كبيرة على تأتي القول الجميل الحسن.

يمكن اعتبار هذا كلّه مرحلة تخلص تعقبها مرحلة أخرى يتم فيها الوقوف على فهم الخاطب (المستمع) "فيصبح الإيجاز عملاً يقوم به المتكلّم في مرحلة أولى ليقوم حديثه على الخلاص والصفاء بأن يحذف منه كلّ ما يدخل الضميم، ويفسد طريق فهمه وتلقيه"²³، والمنهج المتّبع هنا انتقاء الكثير من القليل، وهي نظرية العصر، التي ضبط قوانينها الرّماني سالفاً.

2. العسكري والجرجاني وبدايات الإيجاز

أ-العسكري: خصّص "العسكري" باباً كاملاً هو الباب الخامس لمبحث الإيجاز، وقد بدأه بتعريف (أصحاب الإيجاز) قائلين "الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخلل وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة"²⁴، كونه يقوم على القليل من اللفظ ومقدار حاجة المعنى له.

ويستشهد "العسكري" في هذا على قوله -صلى الله عليه وسلّم-: (حبّك الشّيء يعمي ويصم) وقوله أيضاً: (إنّ من البيان لسحرا) وقوله (الصّحة والفراغ نعمتان)، وقوله عليه الصّلاة والسّلام

(نية المؤمن خير من عمله) وقوله (ترك الشّر صدقة)²⁵، فالمعاني التي يحملها هذا الكلام أكثر من ألفاظه.

هي إذن قضية تناولتها المؤلفات السابقة، لكن الأمر الذي يزيد من صعوبة التعريف هو إيراد صاحبه لقسم ثان في التعبير عن المعنى لم يذكره الذي سبقه وهو باب المساواة، يقول "ومما يدخل في هذا الباب المساواة... وهو أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب وإليه أشار القائل بقوله: "كأن ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض"²⁶، فإن كان اللفظ في المساواة طبقاً للمعنى، فهذا لا يعيننا على تبين المقصود بالحقيقة في التعريف الوارد في بداية الباب، -الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة-

ومن الصعب أن تكون الحقيقة هنا مقابل المجاز لأن ذلك يستدعي الخروج عن جوهر البلاغة، وإنّما هي فن التعبير عن الشيء بما هو عليه، بحيث يؤدي المتكلم المعنى من غير تكلف مؤدياً غرضه، بينما الحقيقة التي تقابل المجاز هي: تلك الحقيقة التي ترتبط بالوضع الحقيقي الذي يراد به عين ما وضع له اللفظ وضعا لا يستند فيه إلى غيره، ويقابل هذا الوضع وضع تأويلي وهو ما يتعلّق بالمجاز، ذلك أنّ اللفظ فيها لا يدلّ بنفسه على المعنى المراد به وإنّما بمساعدة قرينة لفظية أو معنوية²⁷، وبهذا نصل إلى القول بوجود وضعين: وضع تحقيقي أساسه بالحقيقة، ووضع تأويلي أساسه بالمجاز.

وباستقراءنا لتحديدات علماء اللغة لمادة (حقّق)، استخلصنا أنها تدلّ على المعاني التالية: الشيء المحقّق وهو المحكّم، ثمّ نقلت إلى الشيء الثابت والمثبت في موضعه الأصلي، جاء في التنزيل: قوله تعالى: (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) ²⁸ أي ثبت، وقوله سبحانه وتعالى: (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) ²⁹، أي: وجبت وثبتت ³⁰، وقوله تعالى: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) ³¹ أي: وجب، فدلالة الكلمة إذن على المعنى موقوفة على الوضع، بحيث إذا أرسل الدال فهم منه ما وضع له دون توقف على شيء سوى العلم بالوضع، وهذا هو الوضع الحقيقي الذي تحدّثنا عليه من قبل.

وعليه فالحقيقة التي قصدها 'العسكري'، ليست الحقيقة التي توجب الشيء على حقيقته، وهي ليست الحقيقة التي يلتقطها المستمع أو المتلقّي، وإنّما هي الحقيقة التي يريدها صاحبها فتكون القدرة بناء اللفظ على الإيجاز مع تحديد المسار المؤدّي إلى المعاني، "فالمقياس الذي على أساسه تقوم العبارة هو مراعاتها لمن تتوجه إليهم بالكلام، بحيث لا ينقطع حبل التواصل بين المتكلّم والسّامع بسبب ما قد يتسلّل إلى نفس السامع من الملال الذي يهدّد عملية الكلام في جملتها"³²، وهنا تكمن البلاغة.

ب-الجرجاني: أمّا 'الجرجاني' فيتطرّق إلى الإيجاز بطريقة خاصة به، يرى فيها عدم فائدة التّقليل من اللفظ، إذا لم يكن وصفاً له من أجل معناه.

ففي مستوى الفصاحة البلاغية يتنافس الشعراء والأدباء، وتتفاوت قدراتهم من ناحية التعبير أو البيان أو حتى الجانب الفني الدّوقي "وتتميز مقدرة هؤلاء الشعراء والأدباء على اختيار مفردات اللغة

وأوضاعها وعلى صياغة التجارب التي يعيشونها والمواقف الشعورية والنفسية ممّا يجري حولهم"³³، فالسياق جانب معتبر في الوصول إلى المعنى. وبالتالي لا ينظر إلى: - الألفاظ مفردة ومقطوعة عن الكلام الذي تدرج فيه³⁴.

- معاني الألفاظ مفردة عن معنى الكلام المقصود، لأنه لا يعقل أن تكون لفظة 'رَجُل' مثلا أدل على معناها من لفظة 'فرس' على ما يسمى بها³⁵.

- الإعراب، لأنّ التفاضل فيه في هذا المستوى محال، فلا يتصور أن يكون للرفع، والنصب، في كلام مزية وفضل عليهما في كلام آخر³⁶.

- الألفاظ من حيث هي أصوات ونطق لسان لأنها لا تتزايد وتتفاضل في الفصاحة والبيان من هذه الجهة.

وقد يستحسن من جهة كثرة الاستعمال فلا تكون وحشية أو عاميّة سخيفة أزالها العامة عن موضوع اللغة، ومن جهة خفة حروفها وحسن امتزاجها³⁷، وفي حقيقة الأمر نجد أنّ للكلام صيغ متعدّدة لا تتحقّق إلاّ بالغرض الأساسي الذي يفرض صيغة ما عن أخرى.

شهد التفكير البلاغيّ تحولات، تراوحت ما بين الاعتبار الكميّ والمعنوي، لكن سرعان ما انقطع هذا المابين وذلك بعد مجيء الجرجاني وحسمه للأمر نهائيا بأنّ العلاقة بين بلاغة الإيجاز وكَمّ اللفظ، يعني لا علاقة بين ما هو مادي وما هو معنوي، والمسألة عنده ترتبط ارتباطا مباشرا بالقدرة على بناء نص مكثّف، فيه وجوه من المعاني كثيرة يصل إليها القارئ بوجوه الاستدلال والتأويل³⁸. وقد أطلق عليه تسمية معنى المعنى، الناتج عن قدرة المتلقي في توليده أو اشتقاقه للمعنى، واختلافه من قارئ لآخر.

3. رؤية ابن الأثير البلاغية في مسألة الإيجاز:

"ابن الأثير" في كتابه "المثل السائر" أدرج مسألة - الإيجاز - وخصّص لها بابا مفصّلا، من رؤية بلاغية مفادها أنّ للإيجاز قسمين، قسم يعني بإيجاز الحذف، وآخر بإيجاز القصر، فمثلا في تعريفه للإيجاز يقول: "هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه"³⁹، هذا التعريف البسيط يحيلنا إلى قضية المساواة بين اللفظ ومعناه لذلك يمكن اعتبار هذا التعريف عاما غير دقيق، يرى أنّ مطلب الكلام هو أن تكون الألفاظ على قدر المعنى تزيد ولا تنقص، إلّا أنّ هذه المرتبة "لا يمكن أن تتخذها مقياسا لما قد يقع دونها أو يزيد عليها، ولا يمكن أن تسمى هذه المرتبة بالإيجاز"⁴⁰، خاصة وأنّها موجودة لدى العديد من البلاغيين كحدّ وسيط بين طرفين هما الإيجاز من جهة، والإطناب من جهة أخرى.

قسم "ابن الأثير" في مؤلفه، الإيجاز إلى قسمين، إيجاز بالحذف، وإيجاز بالقصر.

فالأول: ما كان فيه المعنى زائد على اللفظ، وفيه يقول: "ولا يكون إلّا في ما زاد معناه على لفظة"⁴¹، والقصد هنا، أن يكون المعنى هو الزائد على اللفظ، لكن أين يكون الحذف؟ هل على مستوى المعنى؟ أو على مستوى اللفظ؟.

للإجابة على هذه الأسئلة، ينبغي تناول هذا النوع من الحذف من ناحية الكم، وليس من ناحية الكيف.

وكما هو زائد - المعنى - عن اللفظ قد يكون مطابقا له يقول 'ابن الأثير' في هذا النوع من الحذف "ما ساوى لفظه معناه"⁴²، وكأته انسجام شكلي.

أمّا 'القسم الثاني'، فهو قسم "يقوم على الاستدلال بالانتقال من شيء معلوم إلى شيء مجهول"⁴³، وذلك يبيّن دقة هذا القسم، مع صعوبة الاهتداء إلى الشيء المحجوب فيه.

أمّا المرحلة التي مثّلت النقلة المهمة في هذه المسألة من حيث دراسة هذه الأساليب بعد نقلة 'الرماني'، هي 'للسكاكي' من خلال 'شروح التلخيص'، انطلاقا ممّا سماه بـ "متعارف الأوساط" فحدث انقلاب عظيم، حيث ألحّ 'السكاكي' على ضرورة المقايسة، بحيث يكون ما نقص عنه إيجازا، وما زاد إطنابا، وعلى هذا النحو يكون "الطول والقصر شيئين نسبيين يستمدان حقيقتهما من النسبة القائمة بين المقيس والمقيس عليه"⁴⁴، فيخرجان نسبيا عن اعتبار المتكلم أو القارئ أو المحلّل من جهة، وعن الاعتبار الانطباعي الذي كان سائدا عند البلاغيين المتقدمين.

4. شروح وتلاخيص كتاب المفتاح للسكاكي:

انطلق 'السكاكي' من مبدأ يقوم على أنّ الحديث عن هذه المسائل الخاصة بالإيجاز والإطناب تتحكّم فيه العلاقة القائمة بين الشئيين لا حقيقة الشئ ذاته، يقول: "أمّا الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلّا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي، مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني في ما بينهم، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه، ولنسميه متعارف الأوساط، وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم"⁴⁵، ومتعارف الأوساط بالنسبة للسكاكي هو مقايسة كما سبق الذكر، لكنّها رياضيّة محضة تتم بين طرفين منتظمين، فيخرج الحجم نسبيا طولا أو قصرا.

أمّا 'التلاخيص' و'الشروح' التي قامت على المفتاح فقد تعدّدت خاصة بعد موت 'السكاكي'، وهي متشابهة في معظمها من بينها شرح 'المغربي'، الذي افتتح حديثه بمسألة الحد والتعريف (في تعريف الإيجاز والإطناب)، وخصّه بمصطلح "متعارف الأوساط" فحمّله على الزيادة أو النقص قياسا على مستوى معيار ثابت يقع الاتفاق عليه.

تسرّب 'المغربي' في تحليله لهذه المعارف إلى مباحث أصولية فقهية، وقد كان في ذلك مساهمة في بلورة المصطلحات والمفاهيم، والتوسيع من دائرتها، خاصة في ما يتعلّق بمعنى المقام وما يقتضيه ذلك المقام من المتكلمين من ضرورة أن يطابق كلامهم مقتضاه⁴⁶، والمقام الذي يقتضي مطابقة كلامه هو "اقتضاء ذلك المقام لما هو أبسط، إنّما هو بحسب ظاهر المقام لا بحسب الاعتبار الباطن، وقد تقدّم أن المقام يقتضي ظاهراً وباطناً"⁴⁷، فالمقام بحسب المقتضى ظاهر وباطن.

ونتيجة لدقة هذا الطرح بين ما هو ظاهر وما هو باطن في المقام، عرض 'المغربي' بعض الشواهد، وخصّ بها الشواهد القرآنية، فاستدعى آية، هي من الشواهد المطردة في كتب البلاغة القديمة، فانطلق من 'مفتاح العلوم' للسكاكي، الذي سبقه في ذلك، والآية هي في قوله تعالى: (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)⁴⁸، وبدأ يحمل الآية على المعيارين، الأول 'متعارف الأوسط'، وتوصّل من خلاله إلى نفي أن تكون هذه الآية من الإيجاز "اعتباراً أن المتعارف هنا هو أصل المعنى في الآية وهو يا ربّ إِنِّي شَخْتُ، فإذا كان هذا هو أصل المعنى فمن الصّعب أن نعتبر الآية من باب الإيجاز"⁴⁹، أمّا الثاني فهو: ما يقتضيه ظاهر المقام من البسط، كدعوة المتكلم على ذكره تلك العوارض التي تنتاب الإنسان بفعل الدهر وتقدّم السن.

وفي هذا المجال يقول 'المغربي': "لكن باطن المقام يقتضي الاختصار على ما ذكر"⁵⁰، وكأنّه استدراك، ينفي وجود القياس والنسبة، لكن السؤال المطروح هنا:

هل يمكن اعتبار البنية المنجزة من خلال هذا الاستدراك إيجازاً؟ أم هي مطابقة لمقتضى المقام؟ يقول: المقام هو الذي يقتضي الاختصار، والإيجاز هو أقل من مقتضى المقام، شرط أن يقتضي المقام أكثر من المتعارف⁵¹، هي حدود وضعها 'المغربي' مع عدم عرض المقاييس التي على أساسها يكون ضبط ما يقتضيه باطن المقام.

ما يمكن قوله عن 'المغربي' في شرح تلخيص 'المفتاح'، هو تركيزه على إمكانية توليد المعنى وبنائه في درجات وهذه المعاني ليست ظاهرة في اللفظ وإنّما في التأويل، وهو غير متوفر لدى الجميع وإنّما يخصّ طبقة من المتعاملين بالّلغة، إلّا أنّها هذا المستوى الراقى من الكلام.

5. خاتمة:

دراستنا لهذا الباب -الإيجاز- جعلتنا نقف على ما ذهب إليه هؤلاء البلاغيون، بأنّه: لا بد من التأكيد على أنّ دراسة هؤلاء لهذه المسألة يقع ضمن سلّم ضبطه على أساس ما هو مقبول وما هو مطروح، فالمطروح سموه إخلالاً أو تقصيراً، وفيه تكون العبارة دون المعنى، وسموه تطويلاً وفيه يكون القول لا فائدة من إيراد ولا يضيف شيئاً إلى المعنى، فالمنهج المتبع عند هؤلاء البلاغيين هو المعنى قبل كلّ شيء، والمعنى يسيطر عليه مفهوم البيان.

ومن أهم النتائج التي وصل إليها البحث ما يلي:

- بروز بعض المفاهيم عند أسلافنا موسّعة ومتداخلة فيما بينها وهي: الأدب، الفن، الإيجاز، الإطناب، البلاغة والكتابة.

- الإيجاز من الأساليب التي لا يتسنى إدراك أهميتها إلا عند من كان له ثبت وقيم في البلاغة إذ يستطيع إدراك ما فيها من لمح وإشارة، وفي حين اعتبروا أن الإطناب من الأساليب المبسطة، التي يتّجه بها المتكلمون إلى من لا يتطلّب منه فهمها وإدراكها كفاءة عالية ومرتبة من البلاغة المتمكّنة عكس الإيجاز.

- تجلّي الوعي بالتّصنيف والتّقسيم من خلال منظومة مفهوميّة في أعمالهم ومدوّناتهم كالأجناس والأقسام والأصناف والأنماط، مع ما يظهر من مراعاة لمستوياتها في التّراتب والتّقابل والتّوازي، فمنه ما هو منطوق ومنه ما هو مكتوب، ومنه ما هو مأثور.

- فللشفوي والمكتوب مدخل في تاريخ البلاغة العربية وهو متمثل في الإيجاز، باعتباره أسلوب مناسب لمقامات الشفوي والتخاطبي القائم على الجمهور والمواجهة.

اقتراحات البحث:

- لهذا نقترح على كل مهتم بمجال البلاغة البحث عن العديد والكثير من القدرات الجديدة التي لم تشر إليها البلاغات القديمة، بطريقة جديدة حديثة وقراءتها قراءة دقيقة واعية.

- ثم توظيفها توظيفاً اقتصادياً مع إعطاء الحذف اللغوي - باعتباره الآلية الأولى في الإيجاز- مصطلحاً جديداً ألا وهو الاقتصاد اللغوي، حتى يكون هذا الأخير باباً لتوسيع المجال في الكسب فعلاً وعملاً.

- وهذا ما يفتح آفاق البحث بالتنقيب والتقليب المستمرين للتّراث العربي استقراء وتطبيقاً وتنظيراً.

6. الهوامش:

¹ - نور الهدى باديس، 2008، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، مبحث في الإيجاز والإطناب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط. 01، ص 07.

² - ينظر: الكاتب ابن وهب، 1967، في وجوه البيان، تح. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مكتبة العاني، بغداد، ص 198، 209.

³ - أبو بكر حفيظي، 1984م-1985م، الفصاحة اللّغوية والبلاغية في القرن الثالث هجري، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر، ص 51.

- ⁴ - أبو هلال العسكري، 1409 هـ - 1989 م، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، ، ص 193.
- ⁵ - سورة البقرة، الآية: 179.
- ⁶ - أبو بكر حفيظي، 1984 م-1985 م، الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث هجري، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر، ص 51.
- ⁷ - أبو هلال العسكري، 1409 هـ - 1989 م، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.2، ، ص 193.
- ⁸ - أبو عثمان بن بحر الجاحظ، 1966 م، الحيوان، تح: محمد عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، ط.3، ج/1، ص 93.
- ⁹ - أبو بكر حفيظي، الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث، ص 53.
- ¹⁰ - نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 25
- ¹¹ - المرجع نفسه، ص 26.
- ¹² - ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج/1، ص 106، 107.
- ¹³ - أبي بكر الصولي، دت، أدب الكاتب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، ص 228.
- ¹⁴ - عمر عروة، دت، النثر الفني القديم (أبرز فنونه وأعلامه)، دار القصة للنشر، الجزائر، د.ط، ص 77.
- ¹⁵ - نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 28.
- ¹⁶ - الرماني، 1968، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 76.
- ¹⁷ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 195.
- ¹⁸ - سورة البقرة، الآية: 179.
- الخطيب القزويني، 1996 م، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط.1، ص 195.
- ¹⁹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 195.
- ²⁰ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 195.
- ²¹ - نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 40.
- ²² - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص 78.
- ²³ - المصدر نفسه، ص 32.
- ²⁴ - المصدر نفسه، ص 193.
- ²⁵ - ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 198.
- ²⁶ - المصدر نفسه، ص 193.
- ينظر: محمود توفيق سعد، 1407 هـ/1987 م، دلالة الألفاظ عند الأصوليين، دراسة بيانية ناقدة، مطبعة الأمانة، مصر، ط.01، ص 11.
- ²⁷ - سورة القصص، الآية: 63.
- ²⁸ - سورة الزمر، الآية: 71.
- ²⁹ - سورة الزمر، الآية: 71.

- ابن منظور، د.ت، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، مج/2، ج/11، مادة: حقق، ص945.³⁰
- سورة السجدة، الآية:13.³¹
- نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص50.³²
- أبو بكر حفيظي، الفصاحة اللغوية والبلاغية في القرن الثالث هجري، ص 59.³³
- ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 308، 309.³⁴
- ينظر: المصدر نفسه، ص 35، 36.³⁵
- ينظر: المصدر نفسه، ص 306.³⁶
- ينظر: المصدر نفسه، ص 36.³⁷
- ينظر: نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 63.³⁸
- المصدر نفسه، ص 265.³⁹
- نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 66.⁴⁰
- ضياء الدين ابن الأثير، 1965م، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط.01، ص 275 .⁴¹
- المصدر نفسه، ص 275.⁴²
- نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص68.⁴³
- نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص 18.⁴⁴
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 209.⁴⁵
- ينظر: أبو العباس أحمد ابن يعقوب المغربي، 2003م، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.01.⁴⁶
- المصدر نفسه، ص 624.⁴⁷
- سورة مريم، الآية: 04.⁴⁸
- نور الهدى باديس، بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة، ص84.⁴⁹
- المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ص 625.⁵⁰
- المصدر نفسه، ص.ن.⁵¹